من معالم الأدب الإسلامي
القصيرة النونية للإمام ابن القيم

الدكتور حسيني علي رضوان إبراهيم
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

التعريف بالشاعر : الأديب الفقيه :

هومحمد بن أبي بكر بن سعيد بن حرين الزرعي ثم الدمشقي الملقب بشمس الدين ، وكنيته أبو عبد الله ، والذي اشتهر وعرف " بابن قيّم الجوزية ".

وقد نجد من يتساءل ولماذا عرف بهذا الإسم أعني " ابن قيم الجوزية " ؟

الجوزية مدرسة بناها محي الدين بن الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي بسوق القمح بدمشق .

وكان والد أديبنا هو القيّم على مدرسة الجوزية ومن أجل ذلك أطلق عليه ابن قيم الجوزية ، ثم أطلق القول عن الإضافة فقيل " ابن القيم "(1) .

وفي بيت علم وفضل ولد إبن القيم في اليوم السابع من شهر صفر عام 691 هـ الموافق لـ 1292 ميلادية .

ويخطئ بعض الكاتبين فيطلق على ابن القيم اسم ابن القيم

(1) ابن تيمية لأبي زهرة ص 526 ، البداية والنهاية لابن كثير 234 جزء 14 .

الجوزي ولقد تسبب هذا الخطأ أنهم نسبوا لابن القيم بعض مؤلفات ابن الجوزي مثل كتاب دفع شبه التشبيه "(1) .

وابن الجوزي هو أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى ببغداد عام 597 هـ وصاحب كتاب " دفع شبهة التشبيه في الرد على المشبه " وكتاب " المغني" ، وكتاب " جامع المسانيد في الحديث "(2) .

كما يحدث لبس أحيانا في خلط بعض الباحثين بين ابن قيم الجوزية وابن القيم المصري بهاء الدين على بن عيسى بن سليمان الثعلبي المصري ، وهو محدث كبير روى عن الفخر الفارس وابن باقة توفي بمصر في ذى القعدة عام 710 هـ(3)

وعلى ذلك فيجب أن يطلق على فقيهنا وأديبنا اسم "ابن القيِّم " فقط أو" ابن قيِّم الجوزية "، ولا يطلق عليه ابن القيم الجوزي لأن الجوزي اسم لشخص آخر وأما هو فمنسوب إلى المدرسة التي كان أبوه قيِّما عليها .

وقد نشأ ابن القيم فوجد أباه على قدر كبير من العلم فكان ذلك أعظم موجه له ، وفي الواقع فإن بيئته كانت علمية نزاعة إليه ..

وقد تأثر ابن القيم بشيخه وأستاذه أحمد بن تيمية الحراني الذي لازمه منذ عام 712 هـ ، وآمن بفكره وقضى جُلَّ وقته في

---

(1) ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي د. عوض الله حجازي ص 36 .
(2) دفع شبهة التشبيه لابن الجوزي ص 3 القدس عام 1354 .
(3) ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي ص 36 .

صحبته .

وابن القيم هو الذي هذّب كتب شيخه ونشر علمه وتراثه وكان ينتصر لآرائه في أغلب الأحيان ، ومن أساتذته الذين تلقى عنهم الصفي الهندي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم الشافعي المتوفى سنة 715 هـ .

وقرأ أيضا على مجد الدين إسماعيل الحراني المتوفى سنة 726 هـ وكمال الدين الزملكاني ، و ابن الشيرازي وغيرهم(1).

وقد اتجه بعد حفظ القرآن الكريم إلى حفظ الحديث ثم حفظ الشعر ودراسة اللغة في عصور الشعر المختلفة ثم تعمق في مجالات الثقافة الإسلامية في الأحكام الفقهية وحفظ مايسعفه به الزمن ، وقد بدا فيه منذ صغره وصباه مزايا كثيرة نمت وظهرت ثمراتها في :

1 - الجد والاجتهاد والانصراف إلى المجدي من العلوم والدراسات لا يلهو لهْو الصبيان ولا يعبث عبثهم .

2 - تفتح نفسه وقلبه لكل ما حوله ، يدركه ويَعيه فلم يكن مشغولا عن الأحياء والحياة إلى الحفظ والاستذكار فقط .

3 - العقل اليقظ والفكر المستقيم والذاكرة الحادة والنبوغ المبكر .

4 - فيض من التواضع والانكسار لازمه منذ نشأته حتى آخر أيامه ، ولا أدل على تلك الصفة من قصيدته الميمية التي

---

(1) ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي د. عوض الله حجازي ص 43 .

ذكر فيها أنه يتصدى لتعليم العلم ، والحال أنه ليس عنده علم وأنه كثير الخطايا والذنوب مع أن كثيرا من العلماء الأفاضل يرون أنه أتقى علماء الإسلام وأشدّهم ورعا ، يقول ابن رجب في طبقات الحنابلة :

" وليس هو بالمعصوم ، ولكن لم أر في معناه مثله "(1) .

ويقول ابن القيم في قصيدته الميمية :

بنى أبي بكر كثير ذنوبه فليس على من نال من عرضه إثم
بنى أبي بكر غدا متصدرا يعلم علما وهو ليس له علم
بنى أبي بكر يروم ترقبا إلى جنة المأوى وليس له عزم
بنى أبي بكر لقد خاب سعيه إذا لم يكن في الصالحات له سهم

إلى أن قال :

وليس له في العلم باع ولاالتقى ولا الزهد والدنيا لديهم هي الهم
بنى أبي بكر غدا متمنيا وصال المعالى والذنوب له هم (2).

وكانت له الذاكرة الواعية التي منحها الله له منذ صباه .

والذاكرة كما يقول علماء النفس هي المقياس الأول للذكاء قوة وضعفا.

5 - كان ابن القيم هادئ الطبع قوي الخلق أليفا ودودا ، يقول أحد رفاقه وأصفيائه المخلصين :(كان حسن القراءة والخلق كثير التودد لا يحسد أحدا ولا يؤذيه ولا يستعيبه ولا يحقد عليه وكنت من أصحب الناس له وأحب الناس إليه ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه).

---

(1) طبقات الحنابلة لابن رجب جزء ج/2 مخطوط بدار الكتب تحت رقم 4411 .
(2) الدرر الكامنة جزء 3 ص 3 - 4 ط الهند .

وكانت له طريقته في الصلاة يطيلها جدا ويمد ركوعها وسجودها ويلزمه كثير من الصحابة في بعض الأحيان فلا يرجع ولا ينزع ذلك رحمه الله (1).

6 - كان له منزع في التصوف ليس هو الذي عرف به المتصوفون .

بل كان منصرفا للعبادة ، ومتجها للزهد ، مدركا لبّ الدين ومعنى الورع وقد أودع نظريته تلك في كتابة (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين) .

فقيه علم الحقيقة وعلم الشريعة حيث تلاقيا فكوّنا متصوفا مستقيما ومفكرا حكيما وخلقا قويما . ولقد كان لتلك الصفات التي تميزت بها شخصيته أثرها الواضح في خلقه وإبداعه في شتى مجالات العلم والأدب والثقافة .

فلقد اتجه إلى العلم ينهل من مناهله ويأخذ من ينابيعه ولم يعرف أنه عدل عن طريق العلم أو رضي به بديلا .

ولعل الأسرة التي درج فيها والتي أعلت قدر العلم والتعليم والتي انصرف أبناؤها إلى الوعظ والخطابة والتأليف في الفروع والأصول عمّق في نفسه كل سبل الثقافة وهيأ له مكانة علمية وأدبية لا حدود لها فلم يكتف كما عرفنا بعلوم الدين بل أضاف إليها علوما أخرى وكتب فيها الموسوعات والمراجع .

وكانت عنايته بالعربية وفروعها عناية خاصة فدرسها كأنه يقصد إليها ليتخصص فيها فحفظ المنظوم والمنثور وأخبار

(1) البداية والنهاية لابن كثير جـ 14 ص 234 .

العرب وعلوم البلاغة وكتب فيها مؤلفه " الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان " .

وبرع في النحو وتعمق في دقائقه حتى أنه ليتأمل كتاب سيبويه ويدرسه دراسة فاحصة ناقدة فيخالف بعض ما فيه معتمدا على مادرس في غيره ولم يكن الناقد لغيره المندفع في القول من غير حجة وسلطان مبين . بل كان ناقدا منهجيا ، محللا ومعللا ...

ولقد كان له في ذلك لمحات رائعة في " كتاب بدائع الفوائد".

كانت دمشق في عهد ابن القيم عشا من أعشاش الأدب والفكر وكانت فيها مدارس كثيرة وكانت الدراسة في تلك المدارس تخصصية فكانت مدرسة الحديث رواية ودراية وكان من أساتذتها " النووي - ابن دقيق - والمزي - والزملكاني " .

وكانت مدرسة الفقه يتفرغ منها عدة تخصصات في الفقه المذهبي ، وكان بجوار دراسة الفقه والحديث دراسة العقائد .

فكان للحنابلة بين المدارس الفهية والاعتقادية مدارس خاصة بهم مثل المدرسة الجوزية والمدرسة السكرية كما لهم المدرسة العمرية التي أنشأها أبو عمرو بن قدامة (1) .

وفي هذه المدارس جميعا درس وتخرج ابن القيم ودرس في كنف أبيه وتوجيهه ورعايته ، ولم تكن ثمة محاجزات تحول دون الدراسة فالعقل البشري طلعة يحاول التعرف والوصول إلى

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير ص 75 جزء 13 .

المعرفة .

وفي الجملة " فلقد ربى ابن القيم نفسه تربية عالية عندما أتقن علوم عصره وفنونه " ولقد ألان الله له العلوم كما ألان لداود الحديد على حد تعبير أحد المعاصرين له ... فكان إذا سئل عن فنون من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غيره، وحكم أن أحدا لا يعرف مثله .

هذه ثمرة الدراسة الناضجة والبحوث الواسعة التي تلقاها وعاشها ابن القيم ، وعالجها في نشأته وشبابه حتى صار له شأنه وشغل عصره والأجيال بعده ولقد تولى التدريس بالجوزية بعد أن استوى رجلا سويا وعالما له وزنه وقيمته ، وكان مثلا وهوفي ميعة الصبا وغرارة الحياة ومثلا عندما تقدم ليغذي النفوس بمعارفه بعد أن تغذى بمعارف السابقين ، وأثمرت في قلبه أينع الثمار وأغزرها وأنضجها ، وتقدم واثقا بنفسه ، ومعونة ربه ليؤدي الأمانة ، بما أودع الله في نفسه وعقله وقلبه من مدارك ومواهب ، وبما هيأه له من تثقيف وقوة تفكير، وعمق إدراك ، والزمن في حاجة إلى مثله .

وابن القيم من العلماء الذين امتازوا بالشجاعة في إعلان قولة الحق ، لا يفكر في عواقبها مهما كان ، ولا نتائجها مهما عظمت ، ولذلك ليس عجبا أن نرى لابن القيم كثيرا من الأنصار الذين أشادوا بذكره ونوهوا بفضله وعبقريته وتقدمه في كثير من قضايا العلم والفكر ، وهؤلاء عرفوا له فضله ومكانته.

كما نرى له كثيرا من الأعداء الحاقدين الحاسدين ، الذين

أرادوا الكيد له والنيل منه . هؤلاء وصل ببعضهم أن يجعله في زمرة الزنادقة والشاذين الخارجين عن إجماع المسلمين والعلماء والعاملين (1) .

والأولون يجعلونه العالم الأكبر ، الشيخ الأجل شيخ الإسلام والمسلمين ، وخاتمة المحققين ووارث علوم المجتهدين وقائد النهضة الفكرية في القرن الثامن الهجري بعد أستاذه " ابن تيمية الحراني " ، منقذ العالم الإسلامي من ورطة التقليد الأعمى ، ووصمة الاتباع لكلام الأولين عن غير بحث أو مناقشة ، وأنه لذلك قد فتح باب الاجتهاد لمن يريد ، وبين أنه ليس وقفا على طائفة من العلماء المتقدمين وإنما هومفتوح في وجه الباحثين المفكرين الذي لهم قدرة على الاستنباط والفهم ما داموا لا يخرجون عن نصوص الشرع الشريف الصريحة ، وليس مغلقا في وجه الباحثين المتأخرين .

فمن هؤلاء الأنصار تلميذه النابه ، والعالم الجليل " ابن رجب الحنبلى " و " الذهبي " و " ابن كثير " وغيرهم من العلماء " كابن عبد الهادي " .

ومن أولائك الأعداء الشيخ تقي الدين السبكي صاحب كتاب (السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل) وقد ألفه ليرد على القصيدة النونية لابن القيم .

ومن هؤلاء الأعداء " تاج الدين السبكي " صاحب كتاب

(1) ابن القيم وموقفه من التفكير الإسلامي ص 51 . د. عوض الله حجازي .

طبقات الشافعية . والتقى الحصنى (1) " . والسبب في عداوة هؤلاء العلماء له كما يظهر من كتاباتهم أنه فتح باب الاجتهاد في الفروع وأنه شذ عن الإجماع في بعض مسائل علم الكلام ولم يرتض الأشاعرة والمعتزلة في تأويل صفات الله ورفض كلام الجهمية والمعطلة واعتبرهم أخطر على الإسلام من اليهود والنصارى .

فكانت شدته في النقد لتلك الفِرق سببا في خروج الكثيرين عليه ، يبدعونه ويفسقونه ويكفرونه ...

ولكن ابن القيم كان غيورا على الإسلام ، رأى تأخر المسلمين وما حلّ بهم في ذلك العصر من النكبات السياسية والمصائب الاجتماعية ، وقع في ذهنه - كما يحكي ذلك بنفسه- أن ذلك بسبب تأخر المسلمين وبعدهم عن الدين الإسلامي ، وعدم وجود حرارة الإيمان في قلوبهم وجمودهم عند نصوص القدامى ، وتقليدهم لآرائهم من غير أن ينقبوا ويبحثوا عن أسرار الشريعة الغراء ، والدين الحنيف ، حتى تخالط بشاشته قلوبهم ، وتسمو بعزته وقوته نفوسهم .

كل ذلك حمله على أن يسلك هذا المنهج في بحثه وأن يفتح باب الاجتهاد والبحث ، حتى ترقى نفوسهم ، وتقوى عقولهم ولأجل أن يحلوا مااستغلق عليهم فهمه من مسائل ، ويوجدوا حلولا لبعض المسائل التي جدت في حياة المسلمين الإجتماعية ، ولم تكن عند القدماء ، وينفتح لهم باب للمباريات الفكرية

(1) المرجع السابق 52 .

والبحث العميق في ذلك الوقت الذي ركد فيه الزمن الإسلامي، واستعجمت فيه الألسنة العربية بسبب الغزو التتري وتغلبهم على المسلمين من الشرق ، وهجوم الصليبيين وغلبتهم عليهم من الغرب ، فأخذ ابن القيم نفسه بالبحث والمجادلة والاجتهاد في بعض المسائل ، وقراءة كتب القدامى من العلماء والفلاسفة والمفكرين .

وأخذ في نقد ها نقدا حرا ، سبب له كثيرا من الشحناء والبغضاء وكثيرا من الأعداء ، وعلى كل حال فليس ابن القيم من المعصومين ، ولكنه قد اجتهد ونقد آراء غيره ، والمجتهد عرضة للخطأ والصواب ، وابن القيم كان متأثرا بكلمة قالها الإمام مالك - رحمه الله - (كل واحد يؤخذ من كلامه ويترك، وكل إنسان يخطئ ويصيب إلا صاحب هذا القبر) مشيرا بيده إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

منابع ثقافته :

وكل ما في الرجل أنه كان له لسان طلق ، وقلم سيال وحافظة جيدة وصفحات كتب كثيرة جدا من كتب النحل التي كانت دمشق امتلأت بها بواسطة الجوافل ..

عني بالحديث وفنونه وبعض رجاله ، وكان يشتغل بالفقه ويجيد تقريره ، وبالنحو واللغة وبالأصول ... وكان عاشق جمع للكتب جمع منها الكثير فكان جماعا للكتب فحصد منها ما لا يحصد حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهرا طويلا سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم .

وهوطويل النفس في مصنفاته .. يتعانى الإيضاح جهده فيسهب جدا وله في ذلك ملكة قوية .. ولا يزال يدندن حول مفرداته ويجنح لها مقصدها . هذه كلمات قالها أحد المتحاملين على ابن القيم القادحين لشخصه المنكرين لعلمه وأدبه .

وهي كلمات لأبي الحسن تقي الدين على بن عبد الكافي السبكي الكبير المتوفى سنة 756 هـ أي بعد وفاة ابن القيم بخمس سنوات .

وقد وردت الكلمات في مقدمة كتابه (السيف الصقيل) في الرد على القصيدة النونية لابن القيم (1) ، وابن عبد الكافي واحد من الذين هاجموا ابن القيم وثقافته بدون موضوعية .

ولكن في العبارة يبرز الكثير من الحقائق تشيد وتشهد لابن القيم بكل ما يفخر به في مجال الفكر والثقافة ، والفضل ما شهدت به الأعداء كما يقال .

ولقد أجمع الذين عاصروا ابن القيم على قوة فكره وسعة علمه ، وتعدد مجالات فكره وميادين ثقافته .

وعمقه في كل مجال .. يستوى في ذلك الأولياء والأعداء فإن تلك القوة الفكرية هي التي أثارت الأولياء لنصرته وهيجت الأعداء لعداوته .

ولسنا بصدد ذكر تلك الأعداد الأخرى من العلماء والمفكرين والمؤرخين الذين عاصروه وأثنوا عليه فإنهم لا يحصون ، من أمثال ابن كثير صاحب البداية والنهاية .

---

(1) السيف الصقيل في الرد على (ابن زفيل) ابن القيم ص 7 ، 8 .

نظرات في القصيدة النونية لابن القيم :

القصيدة النونية تعتبر أطول قصائده ، بل تعتبر من أطول القصائد العربية بوجه عام حيث وصلت إلى 5949 بيتا من الشعر جاءت على بحر واحد هو بحر الكامل والتزمت قافية النون ولذلك عرفت بالقصيدة النونية كما عرفت باسم " الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية " .

الجو الذي قيلت فيه القصيدة :

ولقد نظمها ابن القيم في ظل أوضاع اجتماعية عامة كانت سيئة للغاية مرت بها الأمة الإسلامية والعربية .

فبينما كانت ضربات المغول والتتار وهجماتهم البربرية تتوالى وتنزل بعنف على البلاد الإسلامية كان الغزو الصليبي ما يزال يقوم بعمليات مماثلة .

وكانت البلاد الإسلامية من الداخل ممزقة شر ممزق بسبب الصراعات الفكرية والخلافات المذهبية والاتجاهات المختلفة التي نشب عنها فرق متعددة في علم الكلام والعقائد والفلسفة والتصوف ، إلخ...

في ظل هذا الجو أنشأ ابن القيم القصيدة دفاعا عن الإسلام ضد تلك الهجمات ودفاعا عن عقيدة السلف ، وحفزا للهمم وتشجيعا للمجاهدين على مختلف الجبهات لضرب الأعداء في كل موقع وتشديد الحصار عليهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

وعند ابن القيم أن الجهاد بالقلم واللسان لا يقل عن جهاد السيف والسنان ، وهو لذلك يقول في تقديمه للقصيدة :

" وماأحبّ جهاد هؤلاء الأعداء بالقلب واليد واللسان إلى الرحمن ، وما أثقل أجر ذلك الجهاد في الميزان " ، والجهاد بالحجة واللسان مقدم على الجهاد بالسيف والسنان ولهذا أمر به تعالى في السور المكية حيث لا جهاد باليد إنذارا وتعذيرا ، فقال تعالى : " فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاد كبيرا " وأمر تعالى بجهاد المنافقين والغلظة عليهم مع كونهم بين أظهر المسلمين في المقام والسير ، فقال تعالى : " يأيهاالنبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير " فالجهاد بالعلم والحجة جهاد أنبيائه ورسله وخاصة من عباده المخصوصين بالهداية والتوفيق والإتقان ، ومن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق (1) .

وكفى بالعبد عمى وخذلانا أن يرى عساكر الإيمان ، وجنود السنة والقرآن ، وقد لبسوا للحرب لأمته وأعدوا له عدته ، وأخذوا مصافهم ووقفوا موقفهم ، وقد حمي الوطيس ودارت رحى الحرب واشتد القتال وتنادت الأقران : النزال ، وهو في الملجأ والمغارات والمدخل مع الخوالف ....

ويؤكد ابن القيم بعد ذلك في تقديمه وتمهيده حقيقة أزلية لا جدال فيها وهي أن الحق واحد لا يتعدد ، وأن كثرة الفرق التي تزعم أنها صاحبة الحق وأن ماتدعو إليه هو الحق يجب ألا يخيف أحدا فمهما كثرت وتعددت تلك الفرق فالحق أحق أن يتبع ، وفي الحديث الشريف : تختلف أمتي على ثلاث وسبعين

---

(1) مقدمة القصيدة النونية لابن القيم ص 5 .

فرقة كلهم في النار إلا واحدة .

ومن أجل ذلك رأيناه يطلق على القصيدة : " القصيدة النونية " أو " الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية " .

القصيدة النونية والأدب الدفاعي :

لقد جاءت القصيدة النونية تعبر عن جانب كبير من أدب ابن القيم الذي يمكن أن نطلق عليه الأدب الدفاعي حيث كانت دفاعا عن الحق والقيم والمثل ومحاربة الباطل أيا كان لونه أو شكله .

والأدب الدفاعي مرحلة طبيعية تمر بها الأمة في معركة تحقيق الذات حضاريا ، وانتزاع الاعتراف بها ، وتحديد وجودها ، والدلالة أن ما تمتلكه من المقومات لا يقل عما تمتلكه أية أمة في المجال الإنساني .

كما أنه ينسجم مع واقع الحياة المنظورة ولا يختلف عنها ، وهو سلاح الأمة الوحيد في معركة السقوط الحضاري تشهره في وجه أعدائها لتدافع عن وجودها الثقافي ، وتثبت به هويتها وتبرز به ذاتيتها وتعلن استقلاليتها ، وتخلص أبناءها مما يمكن أن يترسب في نفوسهم من عقد النقص نتيجة للهزائم الداخلية في مرحلة تالية للوجود الأجنبي ، والمناخ الذي يختلف افتتان الغالب وبغيته تذويب الأمة واغتيال وجودها التاريخي والقضاء على معالم أفكارها حيث يبدأ الغالب باستلام زمام المبادهة فيقذف الأمة بمجموعة من المشكلات والقضايا ليحتجز نشاطها ويستوعب فاعليتها ويستهلك جهدها ويتحكم بمساراتها العقلية

ونشاطاتها الثقافية وإبداعاتها الفنية (1) ، أي يسيطر على ساحة الفاعلية فيها ويتحكم بعطائها مسبقا .

ولعل أمتنا لم تصب في تاريخها بمثل ما أصيبت به في عهد ابن القيم حيث تحالفت عليها كل المعوقات التي عقدت عزمها على ضرب جميع مسارات الأمة العقلية ونشاطاتها الثقافية وإبداعاتها الفنية وقيمها الخلقية ، وكأن تلك التيارات العنيفة التي اجتاحت أمتنا في تلك الحقبة كانت على موعد وكانت على اتفاق مع القوى الداخلية المختلفة الاتجاهات ، ولقد استطاعت تلك القوى أن تجعل من المحتَّم على ابن القيم أن يحمل السلاح ويخوض ضدها حربا دفاعية ليحفظ على الأمة كيانها وذاتها مستعينا بالله وواثقا بنصره وتوفيقه .

يأيها الرجل المريد نجاته ** اسمع مقالة ناصح معوان
كن في أمورك كلها متمسكا ** بالوحي لا بزخارف الهذيان
وانصر كتاب الله والسنن التي ** جاءت عن المبعوث بالقرآن
واضرب بسيف الوحي كل معطل ** ضرب المجاهد فوق كل بنان
واحمل بعزم الصدق حملة مخلص ** متجرد لله غير جبان
واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى ** فإذا أصبت ففي رضا الرحمن
واجعل كتاب الله والسنن التي ** ثبتت سلاحك ثم صح بجنان
من ذا يبارز فليقدم نفسه ** أو من يسابق يبد في الميدان
والحق منصور وممتحن فلا ** تعجب فهذي سنة الرحمن
واصدع بما قال الرسول ولا تخف ** من قلة الأنصار والأعوان
لا تخش من كيد العدو ومكرهم ** فقتالهم بالكذب والبهتان

(1) مجلة الأمة القطرية أبريل سنة 1981 .

فجنود أتباع الرسول ملائك ** وجنودهم كعساكر الشيطان (1)

والأدب الدفاعي بحجة الطبيعي وكونه واقعا ضمن إرادة الأمة ومتروكا لاختيارها . واختيارها أمر طبيعي وواقع مستمر ولازم لبقاء الأمة واستمرارها.

ذلك أن ديدن الأعداء إنما هو باستمرار الهجوم الدائب ومحاولة التفتيش عن المواقع الضعيفة للتسلل منها ، والأمة بحاجة دائمة إلى حراسات متيقظة ترابط في المواقع الحضارية لضمان سلامتها وحفظ ثقافتها ورد كيد المبطلين عنها .

ولربما يتراءى للبعض أن ذلك ما هو إلا استنزاف مستمر للطاقات الفكرية واستهلاك دائم للنشاطات الذهنية لمجموع الأمة بحيث لا يترك لها من الوقت ما هو كاف للنظر في المشكلات الحقيقية للأمة والقدرة على تصنيف تلك المشكلات ومن صرف الجهود إلى معالجتها والتفرغ لها .

وهذا هو الأدب الدفاعي الذي وقف به ابن القيم في وجه أعداء الأمة . والأدب الذي أخذ من حياته أطول فترة من عمره الأدبي ولعله كان يدرك بحسه أن هذا الأدب هو الذي يبقى في نهاية المطاف مرحلة من المراحل الحيوية والهامة في حياة الأمة تلك المرحلة التي تعتبر مرحلة التميز التي توصله إلى مرحلة الرشد ذلك الأدب الذي يحفظ الطاقات ويحقق الغايات ويرسخ القيم ويدعم المبادئ .

ولقد كلف ذلك ابن القيم الكثير من المتاعب ولم يكن الطريق

(1) القصيدة النونية لابن القيم ص 16 .

سهلا . هذا الأدب الذي عرفت لابن القيم مكانته وقدره وبعد مرور أكثر من سبعمائة عام عندما أشاد بفضله العارفون ، ورحم الله معروف الرصافي وهو يشيد بابن القيم وأدبه الدفاعي ومواقفه الشجاعية التي سببت له الكثير من المعاناة والمتاعب .

يقول معروف الرصافي في قصيدة " المطلقة " والتي مطلعها :

1 - بدت كالشمس يحضنها الغروب ** فتاة راع نضرتهاالشحوب
2 - منزهة عن الفحشاء خود ** من الخفرات آنسة عروب
3 - نوار تستجد بها المعالي ** وتبلى دون عفتها العيوب
4 - فغاضب زوجها الخلطاء يوما ** بأمر للخلاف به نشوب(1)

إلى أن يقول :

فدى ابن القيم الفقهاء كم قد ** دعاهم للصواب فلم يجيبوا
ففي إعلامه للناس رشد ** ومزد جر لمن هو مستريب
نحا في ماأتاه طريق علم ** نحاها شيخه الحبر الأريب(2)
وبيّن حكم دين الله لكن ** من الغالين لم تعه القلوب
لعل الله يحدث بعد أمرا ** لنا فيخيب منهم من يخيب(3)

القيمة الفنية للقصيدة النونية :

لقد حظيت القصيدة بقدر كبير من العناية عند العلماء ورجال العقيدة وعلماء الكلام لأنها عند هؤلاء مرجع في تلك الجوانب وإن كان نصيبها من عناية الأدباء مازال محدودا ولم نطلع على

---

(1) ديوان معروف الرصافي المجلد الأول ص 154 ومابعدها .
(2) يعني بذلك الإمام ابن تيمية شيخ ابن القيم .
(3) المرجع نفسه المجلد الأول ص 154 .

شرح أدبي لهذه القصيدة يتناسب مع مكانتها ومنزلتها ...وإن شاء الله نحن في سبيل ذلك ...

والقصيدة عند هؤلاء المفكرين والعلماء تقف على قمة العمل الفكري والعلمي عقيدة وفلسفة وفكرا ، وقد امتدحها هذا الفريق حتى رفعها إلى عنان السماء بينما يرى فريق آخر عكس هذا الرأي ويقلل من أهميتها ويخفض من قيمتها وقدرها ويعتبرها ترفا عقليا وشططا علميا لا يساوي شيئا والمنصف لا يتأثر برأي المادحين أو القادحين للعمل الأدبي أو العلمي إنما يعرض هذا العمل بموضوعية وأمانة وتجرد ثم يصدر حكمه المنصف القائم على الحجة والبرهان والموضوعية .

ومن الذين أشادوا بالقصيدة النونية وأعلوا مكانتها ومكانة منشئها الإمام تقي الدين الذهبي في "المعجم المختصر"، وابن رجب الحنبلي في " الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة " وابن كثير في " البداية والنهاية "، والإمام الحافظ المحقق عبد الله بن محمد بن أحمد بن عبد الهادي صاحب " العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية " .

أما الذين حملوا على القصيدة فهم هؤلاء : أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي المتوفي سنة 756 هـ وقد كان من الحاقدين الحاسدين لابن القيم وفكره .

وقد ألف كتابا سماه " السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل " يعني ابن القيم .

وفي هذا الكتاب تحامل شديد على ابن القيم بدون موضوعية.

وللحافظ السبكي مؤلف " رد على نونية ابن القيم " .

وقد كتب محمد زاهد بن الحسن الكوثري تعليقا طويلا على كتاب السيف الصقيل لابن عبد الكافي تابع فيه كل ما قاله وسايره في جميع أقواله وتحامله (1) .

ومع أن هذا الرجل من أشد المتحاملين على ابن القيم وعلى رفضه لفكره وإنكاره لكثير من آرائه إلا أنه يشهد لابن القيم ولأدبه وأسلوبه بهذه الشهادة حيث يقول :

" وكل ما في الرجل أنه كان له لسان طلق وقلم سيال وحافظة جيدة قلب - بنفسه ويدون أستاذ - صفحات كتب كثيرة جدا من كتب النحل " (2) .

وفي معرض حملته الشعواء على النونية يقول :

" ونونية ابن القيم هذه من أبشع كتبه وأبعدها غورا في الضلال وأشنعها إغراء وأوقعها في الكذب ... وإنما اختار طريق النظم في ذلك ليسهل عليه أن يهيم في كل واد ... (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون) .

هذه وجهة نظر ا بن عبد الكافي الذي لم يذكر لنا بعد ذلك في رده سوى رفضه لبعض الآراء المطروحة في القصيدة مما يتصل بمسائل العقيدة والأحكام .

ولقد انطلق نقد المادحين من منطلق ذاتي أما الجانب

---

(1) السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل لابن عبد الكافي ص 8 .

(2) المرجع نفسه ص 5 .

الموضوعي الذي يعنى بإبداء الأسباب وتحليلها في موضوعية فهذا الذي كان يفتقده الفريقان ولا نجده عند أحد منهما ، وإن القادحين قد ناقشوا جوانب عقائدية تتعلق بمسائل من التأويل والتشبيه والتعطيل حول الصفات ومادار من خلاف قديم بين الفرق الكلامية من معتزلة وغيرهم من المعطلة والجهمية إلى آخر ماذكروه .

القصيدة من حيث المضمون :

لقد عرض لنا ابن القيم في هذه القصيدة فكره ومذهبه ورؤيته لسلفية في العقيدة ودافع عن ذلك بكل ما أوتى من وسائل لقد سبق أن تحدثنا عن حقيقة هامة وهي أن ابن القيم كان يعتبر حديثه ذلك دفاعا عن الدين وتصحيحا للملل والنحل التي فسدت وحاولت أن تفسد غيرها وأن تميع الفكر الإسلامي لصحيح .

وليس في شعراء العربية قبل ابن القيم - باستثناء أبي لعلاء المعري - من تناول مسائل الفلسفة وناقش الفلسفة من يشارك ابن القيم ، الذي أحدث فنا شعريا عالج فيه هذا الجانب وربما خيل إلى البعض أن الشعر الفلسفي قديم عند العرب نظم فيه زهير بن أبي سلمى وعدي بن زيد وأبو العتاهية وأبو الطيب المتنبي ، لأنهم طرقوا فنون الحكمة والزهد وأنواع العبرة والعظمة وأحداث الأيام والدهور ... فهؤلاء الشعراء كما يقول الدكتور طه حسين قد استقوا حكمتهم من الفطرة وتجارب الحياة الساذجة أو استقوها من بعض مواريث ديانات قديمة عند الفرس

أو غيرهم (1) .

ولكن ابن القيم استطاع أن ينزل الفلسفة من برجها العاجي الذي لا يرقى إليه سوى الطائفة القليلة من العلماء المتخصصين إلى حيث تسلك طريق الشعر وتصل إلى قلوب عامة الناس الذين كانوا يقرأونها فلا يغيب عنهم منها شيئ .

والعلم يدخل قلب كل موفق   من غير بواب ولا استيذان

وإذا كان أبو العلاء المعري قد اتخذ في شعره الفلسفي منهجا خاصا به حيث كان يستقي من الفلسفة ولا يتقيد بالدين (2) .

.فإن ابن القيم في الجانب الفلسفي من القصيدة النونية كان يختلف في المنهج اختلافا جذريا عن أبي العلاء المعري حيث كان يستقي من الفلسفة ويتقيد بالدين وبمصدريه الأساسين وهما القرآن الكريم وكلام رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم .

وهذا هو الفرق بين الشعر الذ ي قاله ابن القيم في القصيدة النونية والشعر الفلسفي الذي قاله أبو العلاء في اللزوميات وغيرها .

ولم يكن أبو العلاء هو المثل الوحيد للشعر الفلسفي كما يقال فإن ابن القيم يقف على قدم المساواة مع الاختلاف بينهما في المنهج والرؤية والاتجاه...

ويشبه ابن القيم في ذلك - وهو التقيد بالدين في الشعر

---

(1) تجديد ذكرى أبي العلاء للدكتور طه حسين ص 227 .

(2) تجديد ذكرى أبي العلاء د. طه حسين ص 227 .

الفلسفي - الشاعر أبو العتاهية في مرحلة أخيرة من حياته .

ولا بد أن نسجل أن هذا الشعر كان له أثر في الأدب العربي وفي لغة الضاد " فلقد وهب هذا الشعر اللغة العربية مزاجا خاصا يألفه أهل الجد ، ويميل إليه أصحاب الحزم ، مزاجا لا يعرف الباطل إليه سبيلا ولا يملك الضعف النفسي عليه سلطانا ، ثم هو مع ذلك ممثل لعواطف الشاعر تمثيلا فليس ينقصه من مزايا الشعر المعروف إلا الكذب وقلة الغريب "(1)

وفي القصيدة النونية صورة متعددة من مدح لشخصيات ارتبط بها ابن القيم علميا وروحيا وكان يراها تستحق منه كل مدح وثناء نظرا لما أسدته له وللفكر الإسلامي من فضل خدمات لا سبيل إلى جحودها ، وفي مقدمة هؤلاء أستاذه أحمد ابن تيمية الحراني " .

وفي القصيدة صور مختلفة في موضوعات اتجاهاتها. في هذا الجانب الوصفي حلق ابن القيم في أفق عال في الجانب الروحي وفي الحديث عن مشاهد اليوم الآخر ، وعن نعيم الجنة وصف هائل للحور العين .. وأعطانا صورا رائعة ونماذج تؤكد عمق الشاعرية وأصالتها عنده (2) ، وفي القصيدة صور من النقد الاجتماعي والهجاء لبعض الفرق ولبعض الشخصيات التي استغلت الدين في تصورات وأفكار وعقائد منحرفة ضلت بها السبل والمسالك وعاشت في متاهات فكرية وسلوكية

---

(1) المرجع نفسه ص 228 .

(2) راجع الفصل الثاني من الرسالة مبحث الأغراض الشعرية .

استدعت أن يوجه إليهم شاعرنا نقده ولكن بلسان عف لم يخرج أبدا إلى حد الإتهام والتجريح كما فعلوا معه بل كان ملتزما بالأخلاق والسلوك الإسلامي .

نماذج من القصيدة النونية :

مذاهب التطرف والتكفير ورده عليها :

في كل زمان نرى فرقا ثلاثة من المتدينين لها مواقفها المختلفة من الدين ومبادئه :

1 - فمن هؤلاء من يهمل ويفرط في مسائل الدين وشعائره فيعرض عنها أو يتركها أو يقصر في الأداء في العبادة وفي السلوك والأخلاق .

2 - ومنهم من يغالي في التطبيق ويتزمت في الفهم ويأخذ نفسه برهبانية شديدة يلزم بها نفسه فيصعب السهل ويعسر السهل ويرفع السنن إلى مقام الفروض ويريد أن يلزم غيره بهذا المنهج ، وتصل به المغالاة والانحراف في الفهم إلى حد أن يكفر غيره من المسلمين ممن لا يأخذون بوجهة نظره ولا يترسمون خطاه وتزداد المغالاة إلى حد أن يستحل دماءهم وأموالهم وربما أعراضهم .

وهنا يضطرب فكر هؤلاء ويلتبس عليهم الحق بالباطل وتفسد عقائدهم وأفكارهم وشيئا فشيئا يبتعدون عن التصور الحقيقي للإسلام وفهمه .

3 - ومنهم الفريق المعتدل المتوسط الذي لا يغالي ولا يفرط،

وهذا هو الفريق المحمود الذي يلزم المنهج الإسلامي الذي سار عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين .

ولكم عانى ابن القيم من جهالة الذين تطرفوا وكانت لهم أفكار في التكفير بعيدة عن المنهج الإسلامي المعتدل ، ولكنه مع مواقفهم واستعداء السلاطين عليه لم يأبه بشيئ من حماقتهم وأذاهم بل كشفهم وأبرز صورا كثيرة من آرائهم التي أعلنوها في وقاحة وكفروا غيرهم ممن لا يأخذ نفسه بمذهبهم وليس معهم دليل يثبت على بساط البحث العلمي السليم ، وفي معاركه مع جماعات التكفير هذه ومع اختلاف أهوائهم ونزعاتهم كان مثلا رائعا في رده ، وكان حجة دامغة في فكره وتلك غاية من أبرز الغايات التي يتغياها الأدب الإسلامي .

وقد تناول قضيتهم التي شغلت حيزا ضخما من القصيدة النونية ، تناول تلك القضية بالأسلوب الذي التزمه والذي يتميز دائما بالدقة والرقة - دقة العالم ورقة الأديب.

ومن ذلك :

ومن العجائب أنكم كفرتم ** أهل الحديث وشيعة القرآن
إذا خالفوا رأيا له رأي ينا ** قضة لأجل النص والبرهان
وجعلتم التكفير عين خلافكم ** ووفاقكم فحقيقة الإيمان
ميزانكم ميزان باغ جاهل ** والعول كل العول في الميزان
أهون به ميزان جور عائل ** بيد المطف ويل ذا الوزان
لو كان ثم حبا وأدنى مسكة ** من دين أو علم ومن إيمان
لم تجعلوا آراءكم ميزان كفر الناس بالبهتان والعدوان
هبكم تأولتم وساغ لكم أيكفر من يخالفكم بلا برهان
هذي الوقاحة والجراءة والجها ** لة ويحكم يافرقة الطغيان

الله أكبر ذا عقوبـــة تـــارك الوحيـــيـــن للآراء والهذيـــــان
لكننـــا نأتـــى بحكـــم عـــادل ** فيكم لأجل مخافة الرحمـــن
فاسمع إذاً يامنصفا حكميهمـــا ** وانظر إذاً هل يستوي الحكمـان
هم عندنا قسمان أهل جهالـــة ** وذووا العناد وذلك القسمـــان
جمع وفرق بين نوعيهـم همـــا ** في بدعة لا شك يجتمعـــان
وذووا العناد فأهل كفر ظاهـــر ** والجاهلـــون فإنهـــم نوعـــان
متمكنون من الهدي والعلم بالأسبـــاب ذات اليســر والإمكـــان
لكن إلى أرض الجهالة أخلـــدوا ** واستسهلوا التقليد كالعميـــان
لم يبذلوا المقدور في إدراكهـــم ** للحق تهوينـــا بهذا الشـــان
فهم الألى لا شك في تفسيقهـم ** والكفر فيهم عندنـا قـــولان
والوقف عندي فيهم لست الـذي ** بالكفر أنعتهـــم ولا الإيمـان
والله أعلـم بالبطانـــة منهـم ** ولنا ظهـارة حلـة الإعـــلان
لكنهـــم مستوجبـــون عقابـــه ** قطعا لأجل البغي والعـــدوان
هبكم عذرتم بالجهـالـة أنكـم ** لم تعذروا بالظلم والطغيـــان
والطعن في قول الرسول ودينه ** وشهـــادة بالـــزور والبهتـــان
وكذلك استحلال قتل مخالفيكـــــم قتل ذي الإشراك والكفـــران
إن الخوارج ما أحلـــوا قتلهـم ** إلا لما ارتكبوا من العصيـــان
وسمعتم قول الرسول وحكمـه ** فيهم وذلـك واضـــح التبيـــان
لكنكـم أنتم أبحتـــم قتلهم ** بوفاق سنته مـــع القـــرآن
والله مازدادوا النفيـــر عليهـم ** لكـــن بتقريـر مـع الإيمـــان
فبحق من قد خصكم بالعلـم والتحقيـــق والإنصـــاف والعـرفـان
أنتم أحق أم الخـــوارج بالـــذي ** قال الرسول ، فأوضحوا ببيـــان
هم يقتلون لعابد الرحمـــن بـل ** يدعون أهل عبادة الأوثـــان (1)
فانظر إلى أحكامنا فيهم وقـــد ** جحدوا النصوص ومقتضى القرآن

(1) القصيدة النونية ص 196 .

وانظر إلى أحكامهم فينا لأجـــل خلافهـــم إذ قاده الوحيان
هل يستوي الحكمان عند الله أو ** عند الرسول وعند ذي إيمـــان
الكفر حق الله ثـــم رسولـــه ** بالنص يثبت لا بقـــول فـلان
من كان رب العالمين وعبـــده ** قد كفراه فذاك ذو الكفـــران
فهل ويحكم نحاكمكم إلى النصيـــن من وحي ومن قــــرآن
وهناك يعلم أي حزبينا على الكفـــران حقا أو علـــى الإيمـــان
فاليهنكم تكفير من حكمت بإســـلام وإيمـــان لـــه نصـــان
إن كان ذاك مكفرا يا أمة العـــدوان من هذا علـــى الإيمـــان
قد دار بين الأجر والأجرين والتكفيـــر بالدعـــوى بلا برهـــان
كفرتم والله من شهد الرســـو ** ل بأنه حقا علـــى الإيمـــان
كم ذا التلاعب منكم بالدين والإيمـــان مثل تلاعب الصبيـــان
خسفت قلوبكم كما خسفت عقـو ** لكم فلا تزكو على القــــرآن
كم ذا تقولوا مجمل ومفصـــل ** وظواهر عزلت عن الإيقـــان
حتى إذا رأى الرجال أتاكـــم ** فاسمع لما يوحى بلا برهـــان
مثل الخفافيش التي إن جاءهـــا ** ضوء النهار ففي كوى الحيطان
عميت عن الشمس المنيرة لا تطيـــق هداية فيها إلـــى الطيـــران
حتى إذا ما الليل جاء ظلامـــه ** جالت بظلمته بكـــل مكـــان
فترى الموحد حين يسمع قولهـــم ** ويراهم في محنة وهـــــوان
وارحمتاه لعينـــه ولأذنـــه ** يامحنة العينيـــن والأذنـــان
إن قال حقا كفروه وإن يقـــو ** لوا باطلا نسبـــوه للإيمـــان
حتى إذا ما رده عادوه مثـــل عـــداوة الشيطـــان للإنســـان
****

ياقوم فانتبهوا لأنفسكم وخلـــوا الجهل والدعوى بلا برهـــان
ما في الرياسة بالجهالة غير ضحكـــة عاقل منكم مدى الأزمـــان
لا ترتضوا برياسة البقـر التـــي ** رؤساؤها من جملة الثيران(1)

(1) القصيدة النونية ص 199 .

ثم يتابع ابن القيم حديثه الطويل عن هؤلاء وفي النهاية يوجه إليهم هذا القول :

يامبغضا أهل الحديث وشاتـم ** أبشر بعقد ولاية الشيطـان
أو ماعلمت بأنهم أنصار دين اللـه والإيمـان والقـرآن
أو ماعلمت بأن أنصار الرسـو ** ل هم بلا شك ولا نكـران
هل يبغض الأنصار عبد مؤمـن ** أو مدرك لروائح الإيمـان ؟
شهد الرسول بذاك وهي شهـادة ** من أصدق الثقلين بالبرهـان

******

وتعر من ثوبين من يلبسهمـا ** يلقى الردى بمذمة وهـوان
ثوب من الجهل المركب فوقـه ** ثوب التعصب بئست الثوبـان
وتحل بالإنصاف أفخر حلـة ** زينت بها الأعطاف والكتفـان

******

وإذا تكاثرت الخصوم وصيحـوا ** فاثبت فصيحتهم كمثل دخـان
يرقى إلى الأوج الرفيع وبعـده ** يهوي إلى قعر الحضيض الداني
هذا وإن قتال حزب اللـه ** بالأعمال لا بكتائب الشجعـان

******

واجعل لقلبك هجرتين ولا تنـم ** فهما على كل امرئ فرضـان
فالهجرة الأولى إلى الرحمن بالإخـلاص في سر وفي إعـلان
فالقصد وجه الله بالأقوال والأعمـال والطاعات والشكـران
فبذاك ينجو العبد من إشراكـه ** ويصير حقا عابد الرحمـن
والهجرة الأخرى إلى المبعـوث ** بالحق المبين وواضح البرهـان
واهجر ولو كل الورى في ذاتـه ** لا في هواك ونخوة الشيطـان
واصبر بغير تسخط وشكايـة ** واصفح بغير عتاب من هو جان
واهجرهم الهجر الجميل بلا أذى ** إن لم يكن بد من الهجـران
وانظر إلى الأقدار جارية بمـا ** قد شاء من غيٍّ ومن إيمـان
واحذر كمائن نفسك اللاتي متى ** خرجت عليك كسرت كسرمهان

وإذا انتصرت لها فأنت كمن بغى ** طغى الدخان بموقد النيران
هذي وصية ناصح ولنفسـه ** وصى وبعد سائر الإخوان (1)

هل أدت القصيدة النونية الغاية التي كان يهدف إليها ابن القيم ؟

لقد أدت القصيدة النونية غايتها وحققت الهدف منها وذلك بما يأتي :

1 - فلقد ساعدت على دعم المثل والقيم الإسلامية الرشيدة التي أنشئت من أجلها .

2 - لقد قامت بدور المساندة والمؤازرة للفكر الإسلامي الحر الذي قاد مسيرته شيخ ابن القيم " الإمام تقي الدين ابن تيمية " ومساندة المدرسة السلفية حيث استطاعت أن تدعو إلى الفكر السلفي وأن ترفض التقليد الأعمى لأي اتجاه أو لأي مذهب مهما كان .

3 - ساعدت على كشف عيوب المجتمع الإسلامي في عصر ابن القيم وشخصت وسائل العلاج وقضت على كثير من الانحرافات التي استشرت في مجال العقيدة والسياسة والاجتماع .

4 - كان لها دورها في تنمية الوعي الإسلامي الذي فرض عليه يومئذ أن يتوقف عن الحركة وأن ينضب عن العطاء وسلّحته بأقوى الأسلحة التي تحميه وتحصنه من جميع التيارات

---

(1) القصيدة النونية ص 21 .

الداخلية التي شنتها عليه القوى الوافدة أو الحاقدة أو المتزمتة المتعصبة .

5 - ولقد استمرت رسالتها واستطاعت أن تمضي عبر الحقب والأعوام تؤثر في فكر وأدب وشعر الكثيرين من المفكرين والشعراء وتلهمهم أفكارا وتقدم لهم زادا ومرجعا حتى اليوم .

إنها ملحمة من أروع ملاحم الفكر والوجدان ، والعاطفة الطاهرة النقية تستمد أبعادها من أسمى المشاعر ومن أنبل العواطف .

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ** واختر لنفسك أحسن الإنسان
فالقلب مضطر إلى محبوبه الأعلى فلا يغنيه حب ثان
وصلاحه وفلاحه ونعيمه ** تجريد هذا الحب للرحمن
فإذا تخلى منه أصبح حائرا ** ويعود في ذا الكون ذا هيمان
لكن ذا الإيمان يعلم أن هذا كالظلال وكل هذا فان
وسحابة طلعب بيوم صائف ** فالظل منسوخ بقرب زمان
وكزهرة وافى الربيع بحسنها ** أولا معا فكلاهما أخوان
أو كالسراب يلوح للظمآن في ** وسط الهجير بمستوى القيعان
أو كالأماني طاب منها ذكرها ** بالقول واستحضارها بجنان(1)

6 - والقصيدة وقد واقت على هذا الرقم من الأبنات ، حيث وصلت كما ذكرنا آنفا إلى 5949 بيتا من الشعر وجاءت على هذا النفس الطويل من القافية وتناولت الموضوعات المتعددة وجالت في ميادين شتى من قضايا الفكر والعقيدة والأدب ،

---

(1) القصيدة النونية ص 250 .

إنها لا شك زاد قدمته للأدب والفن ، وهذه المساحة الضخمة لعلها تشفع لابن القيم وتعفيه من بعض الهنات التي وقعت خلال القصيدة سواء منها مايرجع إلى الموسيقى أو بعض الكلمات التي جاءت مخالفة لقوانين وقواعد النحو والصرف أو بعض العبارات التي اقتحمت من أجل القافية والحفاظ عليها ، فلقد تحمل ابن القيم عبئا ضخما وهو يقطع هذا الشوط الطويل " مع النون" .

إن القصيدة ديوان حافل بألوان متعددة من الفنون العلمية المختلفة ، والجوانب الفكرية الكثيرة ..

قامت في مرحلة مبكرة بدور رائد في مجال الأدب الإسلامي الذي تنحصر رسالته في إقامة فن إبداعي قائم على أساس الرؤية الإسلامية للكون والحياة والإنسان .. الإنسان في مجال فكره وعقيدته وعواطفه ومشاعره وطموحاته .. وشتى طموحاته.. الإنسان في مجال مسيرته الحياتية المتعددة المسارات المتنوعة الاتجاهات .. والقصيدة أو الملحمة النونية ، يجب ألا نخضعها لبعض مقاييس النقد الحديث أو الغربي .. وإنما بمقاييس زمنها وعصرها وبيئتها .. وهذا أمل مبدعها ورجاؤه .

أمل ورجاء :

هذا وللشاعر أمل كان يأمله بعد أن أتم كتابة القصيدة وكان له رجاء يرجوه من كل قارئ لتلك القصيدة ولكل من تقع عيناه عليها أو على جزء منها من أهل العلم والإيمان " أن يتجرد لله ويحكم عليها بما يوجبه الدليل والبرهان ، فإن رأى حقا قبله

وحمد الله عليه وإن رأى باطلا أوكان له رأي فليعذر منشئها "، ثم يرجو ابن القيم من كل قارئ لها أن يحفظ لسانه فلا يقول بهتانا أو زورا أو استهجانا في حق صاحبها وليحذر الحكم عليه بالكفر بعد ذلك .

وفي ذلك يقول ابن القيم :

يأيها القاري لها أجلى مجلس الحكـــم الأمين أتى لها الخصمان
واحكم هداك الله حكما يشهد العقـــل تصريح من القـــرآن
واحبس لسانك برهة عن كفـــره ** حتى تعارضها بلا عـــدوان
فإذا فعلت فعنـــده أمثالهـــا ** فنزال آخر دعوة الفرســـان
فالكفر ليس سوى العناد ورد ما ** جاء الرسول به لقـــول فلان
فانظر لعلك هكذا دون الـــذي ** قد قالها فتفوز بالخســـران
فالحق شمس والعيون نواظـــر ** لا تختفى إلا على العميان
والقلب يعمى عن هداه مثل مـــا ** تعمى وأعظم هذه العينان(1)

خاتمة القصيدة النونية :

لقد أنهى ابن القيم القصيدة بابتهال توجه به إلى الله سبحانه أن ينصر دينه وكتابه وأن يأخذ بيد كل من دعا إلى الله بحق وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

هذا ونصر الديـن فرض لازم ** لا للكفاية بل على الأعيـــان
بيد وإما باللسان فإن عجـــز ** ت فبالتوجه والدعـــا بجنـــان
ما بعد ذا والله للإيمان حبـــة خردل ياناصـــر الإيمـــان
بحياة وجهك خير مسؤول به ** بنور وجهك ياعظيم الشـــان
وبحق نعمتك التي أوليتهـــا ** من غير ما عوض ولا أثمـــان
وبحق رحمتك التي وسعت جميـــع الخلق محسنهم كذاك الجانـــي

(1) القصيدة النونية ص 252 .

ويحق أسماء لك الحسنى معـــا ** نيها نعوت المدح للرحمـــن
ويحق حمدك وهو حمد واسع الأكـــوان بل أضعاف ذي الأكـــوان
وبأنك الله الإله الحـــق معبـــود الورى متقدس عن ثـــان
بل كل معبود سواك فباطـــل ** من دون عرشك للثرى التحتاني
وبك المعاذ ولا ملاذ ســـواك ** أنت غياث كل ملدد لهفـــان
من ذاك للمضطر يسمعه ســـوا ** ك يجيب دعوته مع العصيـــان
إنا توجهنا إليـــك لحاجـــة ** ترضيك طالبها أحق معـــان
فاجعل قضاها بعض أنعمك التي ** سبغت علينا منك كل زمـــان
انصر كتابك والرسول ودينك العالـــي الذي أنزلت بالبرهـــان
واخترته دينـــا لنفســـك واصطفيـــت مقيمه من أمة الإنســـان
ورضيته دينا لمن ترضـــاه مـــن ** هذا الورى هو قيم الأديـــان
وأقر عين رسولـــك المبعـــوث بالديـــن الحنيف بنصرة المتـــدان
وانصر بالنصر العزيز كمثل مـــا ** قد كنت تنصره بكل زمـــان

******

يارب وانصر خير حزبينا علـــى ** حزب الضلال وعسكر الشيطان
يارب واجعل شر حزبينا فـــدى ** لخيارهم ولعسكر القـــرآن (1)
يارب واجعل حزبك المنصـــور أهـــل تراحم وتواصل وتـــدان
يارب واحمهم من البدع التـــي ** قد أحدثت في الدين كل زمان
يارب جنبهم طرائقهـــا التـــي ** تفضي بسالكها إلى النيـــران
يارب واهدهم بنـور الوحـــي كي ** يصلوا إليك فيظفروا بجنـــان
يارب كن لهم وليـا ناصـــرا ** واحفظهم من فتنة الفتيـــان
وانصرهم يارب بالحق الـــذي ** أنزلتـــه يامنـــزل القـــرآن
يارب إنهم هم الغربـــاء قـــد ** لجأوا إليك وأنت ذو الإحسان
يارب قد عادوا لأجلك كـــل هـــذا الخلق إلا صـــادق الإيمان

(1) القصيدة النونية ص 255 .

قد فارقوهم فتلك أحوج ماهـــــم ** دينا إليهم في رضا الرحمـــن
ورضوا ولايتك التي مـــن لهـــا ** نال الأمان ونال كل أمـــان
ورضوا بوحيك من سواه وما ارتضوا ** بسواه من آراء ذي الهذيـــان
يارب ثبتهم علـى الإيمـــان واجعلهـــم هـــداة لتائه الحيـــران
وانصر علـى حزب النفاة عساكر الإثبـــات أهل الحـــق والعرفـــان
وأقم لأهل السنة النبـــوية الأنصـــار وانصـــرهم بكـــل زمان
واجعلهم للمتقيـــن أئمـــة ** وارزقهم صبرا مـــع الإيقـــان
تهدي بأمرك لا بما أحدثـــوا ** ودعوا إليه الناس بالعـــدوان
وأعزهم بالحق وانصرهـــم بـــه ** نصرا عزيزا أنت ذو السلطان
واغفر ذنوبهم واصلح شأنهـــم ** فلأنت أهل العفو والغفـــران
ولك المحامد كلها حمدا كمـــا ** يرضيك لا يفنى على الأزمان
ملء السموات العلى والأرض والموجـــود بعد ومنتهى الإمكـــان
مما تشاء وراء ذلك كلـــه ** حمدا بغير نهايـــة بزمـــان
وعلى رسولك أفضل الصلوات والتسليـــم منك وأكمل الرضـــوان
وعلى صحابته جميعـــا والآلـــي ** تبعوهم من بعد والإحسان(1)

هذا وبالله التوفيق

(1) القصيدة النونية ص 256 .